بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 04 يناير 2017

فلسطين والفلسفة

مونيس بخضرة
باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

الملخص:

تتناول هذه الدراسة مدى حضور فلسطين - كقضية راهنة وتراث له خصوصياته الثقافية والدينية واللغوية - في الفلسفة كخطاب ومواقف ومعرفة، والكشف عن مواقف الفلاسفة منها، سواء في معاناتها من جراء الاحتلال الإسرائيلي لها وما عرفته من جرائم بشعة في حق أبنائها الفلسطينيين، أو كمنطقة ساهمت بشكل مباشر منذ القدم في تواصل الحضارات وفي صناعة القيم وفي حوار الأديان السماوية، مما جعلها مرجعا للإلهام الديني وللتعايش، وهي كلها خصائص جعلتها تكون حاضرة في صلب تاريخ العلوم والمعارف بعامة وفي الفلسفة خصوصا، بما أنها أرض مرتّ عليها شعوب وقوميات مختلفة، جعلت منها ذاكرة للحضارات والشعوب المتديّنة.

يعد تعاطف بعض المفكرين والفلاسفة والفنانين العالميين مع القضية الفلسطينية في المنتصف الثاني من القرن العشرين مكسبا مهما لها، وصارت معيارا لمدى تقارب الشعوب فيما بينها حسب رؤية الفلاسفة، ومخبرا لمفهوم النضال وللقضايا العادلة، وهنا تكمن أهمية انفتاح الفلسفة على القضية الفلسطينية، بما أنها أرض تستمد منها القوة والانسجام والحقوق والمصالحة، متسائلين فيها، عن الصيغ والطرق التي تناول فيها الفلاسفة كل ما يتعلق بفلسطين من قوميات من عرب ويهود وديانات وصراعات.

مقدمة/ الفلسفة والجغرافيا

شكّلت فلسطين - أرضا وتاريخا وتراثا - محورا أساسيا في العالم عامة وفي الشرق الأوسط خاصة، نظرا للأدوار المرجعة الكبرى التي لعبتها كنقطة إشعاع ديني مركزي هام، وكنقطة لقاء الشرق مع الغرب، والجنوب مع الشمال. فهي مهد الديانات الكبرى، وجغرافيا التفاعل الثقافي بين الحضارات المجاورة لها، مما أهلها تاريخيا لأن تكون محركا للأحداث الكونيّة التي ساهمت من قريب أو من بعيد في تغيير مجرى البشرية، وهي كلها جملة مؤهلات جعلت منها أرضا تعيش الحدث على الزمن، وأرضا ديناميكية لم تعرف الاستقرار أبدا وإلى يومنا هذا.

انطلاقا من البعد الثقافي والديني والتاريخي الزاخر لفلسطين، وبعيدا عن السجال السياسي والإيديولوجي الذي لفّ القضية الفلسطينية ولازال كذلك، تأتي ورقتنا هذه للوقوف على موضوع لا طالما ظلّ مغيّبا من التناول المعرفي في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ألا هو فلسطين والفلسفة، والغرض منه هو مدى حضور فلسطين في الفلسفة وفي أعين الفلاسفة، ومعرفة موقف الفلسفة كخطاب ومعرفة مشروطة بالتساؤل والنقد من فلسطين من زوايا عديدة، ثقافية ودينية وسياسية (...) إلخ.

عرفت الفلسفة كنشاط معرفي بشموليتها في تناول الموضوع، وهذا بغض النظر عن طبيعة المرجعيات التي ينطلق منها المشتغل بالفلسفة بملامسته للموضوع، سواء كان مثاليا أو واقعيا أو ذرائعيا (...)، ونظرا لتوفرها على أدوات معرفية ومنهجية مختلفة وعديدة، صارت أكثر المعارف قدرة على تفكيك الموضوع وإعادة بناؤه وفق منهج الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» المفصل في كتابة (مقال في المنهج)، وهو طريقة من بين الكثير من الطرائق المهمة التي تزخر بها الفلسفة في تاريخها.

تأتي الحاجة لتفكيك علاقة الفلسفة بأي شيء (ما)، من إمكانية وجود هذه العلاقة بالفعل، مما يجعل هذا الدور فكريا في غالب الأحيان، والذي يثبت أن جميع مزاعم التي تحصر أدوار الفلسفة في بعض النقاط فقط هي هاوية وبعيدة عن الصحة. فللفلسفة علاقة بالتاريخ والجغرافيا وطبائع الشعوب والثقافة والصنائع، وكل ما يفرضه الزمن من تحولات، وهذا ليس إلا لشيء واحد سبق لهيجل وأن حدده في مفهوم «المطلق»، وإدموند هوسرل سماه بالفلسفة الصارمة. ورغم اختلاف التسميات والتعريفات لهذه القدرة، يمكننا أيضا تسميتها بمفهوم عملي وشائع جدا، وهو مفهوم الشمول، أي أن الفلسفة هي معرفة شاملة، ومن هذه الخلفية تأتي أهمية ملامسة فلسطين كموضوع ثري يحتوي على ملفات عديدة ومتداخلة.

ارتبطت الفلسفة بالمكان والجغرافيا بشكل كبير منذ ظهورها في بلاد اليونان، حيث آمن اليونانيون أنها هبة يونانية، وهو النهج نفسه سار عليه فلاسفة ألمانيا المحدثين على غرار هيجل وهيدغر فيما بعد.

فغالبا ما نجد دراسات كثيرة قد انفتحت على هذا الترابط، بما أن المكان هو حامل للفكر وملهمه، فكل ما يهم الفلسفة من المكان هو صفائح الوعي التي ينتجها والعناصر الثقافية التي يفعّلها أفراده، وأيضا معالم الخطاب المتداول فيه وتجلّيات فكره في الفن والدين والفلسفة. وهي التعيّنات نفسها التي تتجلى في علاقة الفلسفة بفلسطين، كمكان لله وللأنبياء وللتسامح والصفح والحوار والنضال والقيم (...).

قبل أن تكون فلسطين قضية دنيوية تخص الإنسان كانت سماوية، فالقدس هي مدينة سماوية، ونموذج للمصالحة الكونّية، حيث تصالح الله مع الإنسان فيها أكثر من مرة، وتشكّلت النورانيّات السماوية فيها عبر الوحي والهدي، والتي عبرها أحسن الإنسان السماع إلى ربه، وأتقن فيها تجربة النجاة أكثر من أي مكان آخر في هذا الوجود. وهي التجربة ذاتها التي دفعت بعض الفلاسفة لأن ينفتحوا على هذه الأرض بجميع مكوناتها الثقافية والتاريخية والدينية، فلهذه الأرض علاقة متجذرة بالكتابة حسب جاك دريدا. أما هيجل، فقد ربطها بالترحال الذي هو خاصية بارزة للنبي إبراهيم - النبي الرحّالة - وهي أرض شهدت تداخلات مع اليونان والرومان في عز تشكل الخطاب الفلسفي فيهما.

منذ القدم وفلسطين تبحث عن السلام، وقد عاشت بعض النماذج منه، وهي نماذج لم تكتمل بعد، وكأنها عبره تبحث عن الحقيقة والحق، وبه علّمت البشرية كيف يقبل الإنسان الآخر، ويزيل كل فرص التهديد والتخويف، ويتواصل البشر فيما بينهم بما تعلموه من دياناتهم وما تمليه عليهم عقولهم المخصبة بالثقافة العالية، حيث إن الرجوع للتأمل في فلسطين كواقعة أمر مهم للنخب وللمثقفين والفلاسفة.

لعبت فلسطين دورا ثقافيا أساسيا في ربط ضفاف المتوسط فيما بينها، بين الشمال والجنوب وغربه بشرقه، كمعبر لمرور قوافل العلماء والمثقفين من روما وأثينا عبر القدس وبلعلبك إلى الإسكندرية وقرطاجة وسيرتا والقيصرية (مدينة شرشال حاليا في شمال الجزائر)، وبها تشكّلت مدراس في كبريات الحواضر ساهمت في علوم مختلفة مثل: الحقوق والفلسفة والجغرافيا والآداب والفنون. وعليه، يبقى التفكير في تاريخ علوم المنطقة من دون ذكر فلسطين إجحافا بالغا في حقها.

فلسطين والحاجة إلى الفلسفة

بناء على عراقة حضور فلسطين في تاريخ العلوم والمعارف ودورها في ثراء التراث البشري، سنقف عند لحظات تلاقي فلسطين مع الفلسفة، وتفصيل نشاط الفلاسفة في تعرية القضية الفلسطينية، وهي القضية التي ظلّت حبيسة التغطية السياسية والأيديولوجية دون تحريرها، لتصير قضية مفتوحة على أهل الفن والمعرفة والمفكرين، بما أنهم الأقدر على إيصال الكلمة وإسماع الرأي العام العالمي لما يجري حولها

والكشف على جوانبها الإنسانية، زيادة على درايتهم الكبيرة لحيثياتها. ولهذا بات من الضروري للمفكرين الاهتمام بالمسألة الفلسطينية في كتاباتهم وأشعارهم وإبداعاتهم، على غرار كتابات المفكر «إدوارد سعيد» في أمريكا والمفكر «عزمي بشارة» وأشعار «محمود درويش» المدوية، إذ لا يمكن للأحد أن ينكر لأدوارهم الكبيرة في حمل القضية الفلسطينية إلى العالم.

هي الدعوة نفسها التي دعا إليها «إدوارد سعيد» أكثر من مرة في كتاباته ومحاضراته التي كان يلقيها في الجامعات الغربية، متهما بعض المثقفين بالخيانة خاصة منهم العرب، وفي هذا المجال يستغرب سكوت مفكرين كبار وفلاسفة من طراز «جان بول سارتر» الذي لم يشر قط للقضية الفلسطينية، رغم نضالاته الفلسفية المعروفة حول الحرية وحقوق الإنسان.

يرى «إدوارد سعيد» أن الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» قد تعرض للتهميش، ونسيت مواقفه الشجاعة من قضايا التحرر العالمي، غرار دفاعه عن الجزائر وفيتنام، وجهده المكرس للمهاجرين، وظهوره الباسل الراديكالي في مظاهرات طلابية عام 1968 في باريس، بالإضافة الى مرتبته الاستثنائية وتميزه الأدبي الذي نال عليه جائزة نوبل للأدب ورفضها لأسباب شخصية. يقول إدوارد سعيد: يجب أن أقول بالنسبة إلى جيلي إنه كان دائما أحد أعظم المفكرين الأبطال في القرن العشرين، رجل كرس كل بصيرته ومواهبه العقلية في خدمة كل قضية تقدمية في زماننا[1].

حول مواقف «جان بول سارتر» من القضية الفلسطينية، يسرد «إدوارد سعيد» وقائع ملتقى علمي جرى في بيت الفيلسوف «ميشال فوكو» وبحضور أعلام الفكر الفلسفي الفرنسي أنداك لمناقشة النقاط الثلاث، وهي: السلام بين إسرائيل والعالم العربي، وقيمة معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل (معاهدة كام ديفيد)، والظروف العويصة للتعايش الذي قد يحدث بين إسرائيل والعالم العربي.

حينها كان «إدوارد سعيد» ناشطا في السياسة الفلسطينية وأصبح عضوا في المجلس الوطني في عام 1977، وحاول أن يجعل من «سارتر» مؤيدا للقضية الفلسطينية في تلك اللحظة الحاسمة من الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

وأثناءها أدرك إدوارد أن الهدف الأساسي من هذه الحلقة الدراسية هي مناقشة سبل التطبيع بين إسرائيل والعرب (فلسطين)، ومحاولة «إدوارد سعيد» لضم سارتر إلى صفوف المدافعين عن القضية

1 إدوارد سعيد، (2006) الثقافة والمقاومة، ط1، حاوره دايفيد بارسيمان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، المشروع القومي للترجمة، بيروت، ص 189

الفلسطينية على غرار مواقفه التاريخية من القضية الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي، والذي رأى فيه موقفا نقديا لإسرائيل أصعب من موقفه المؤيد للقضية الجزائرية.

وفي هذا الشأن يقول «إدوارد سعيد»: ولأسباب لم نتأكد منها بعد، ظّل «سارتر» ثابتا في مناصرته للصهيونية المتعصّبة، إما كان يخاف من أن يبدو معاديا للسامية أو لأنه شعر بالذنب حول الهولوكوست، أو لأنه في نفسه إعجاب عميق للفلسطينيين كضحايا ومقاتلين ضد الظلم الإسرائيلي أو بسبب آخر لن أعرفه أبدا[2].

ونتيجة هذا، ظلّت مواقف «سارتر» المخيّبة، خيبة مريرة لكل عربي (غير جزائري) حسب «إدوارد سعيد».

وفي هذا الموضع، اعتبر «إدوارد سعيد» الفيلسوف «بيرتراند راسل» أفضل من «سارتر». فالقضية الفلسطينية في نظر «إدوارد سعيد» لم تترك أي تأثير على «سارتر»، وإن كان ذلك بسبب إسرائيل حسب اعتقاده، أو بسبب نقص أساسي في التعاطف لأسباب ثقافية ودينية. فهو عكس صديقه «جان جينيه»، الذي اشتهر بهيامه الغريب بالفلسطينيين في إقامة مطولة معهم خاصة ما أتى في كتابيه: (أربع ساعات في صبرا وشتيلا) و(أسير العشق)[3].

فلسطين في فكر «إدوارد سعيد»: الكل مسؤول عن تحرير فلسطين

يعد المفكر «إدوارد سعيد» أحد أكبر المنظرين للقضية الفلسطينية في القرن العشرين. فالرجل وظّف أدوات العلوم الاجتماعية والإنسانية من مناهج وأفكار ومفاهيم في قراءته للمشاهد الفلسطينية وللصراعات الدائرة في المنطقة، سواء تلك التي دارت بين التيارات السياسية الفلسطينية فيما بينها، أو بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل حول مسألة الاحتلال والاستيطان.

عرف «إدوارد سعيد» بقراءاته النافذة لقضايا الشرق عامة وللقضية الفلسطينية خاصة، فهو يملك قدرة كبيرة على التحليل الثقافي ونقد الأنظمة الشمولية وطرق التلاعب بعقول الجماهير.

2 المرجع نفسه، ص 196

3 المرجع نفسه، ص199

ففي تناوله للمسألة الفلسطينية، أبان «إدوارد» مواقفه الواضحة والصارمة، ففي حوار أجراه معه «أهرام ويكلي» يوم 26 نيسان 2011، أن الانتفاضة الفلسطينية قد وصلت إلى المرحلة الأكثر قسوة واختناقا بالنسبة إلى الفلسطينيين.

كتب إدوارد سعيد قائلا: لم أستطع أن أعيش حياة ساكنة أو غير ملتزمة. ولم أتردد في إعلان انتمائي والتزامي بواحدة من أقل القضايا شعبية على الإطلاق.[4]

كانت بداية «إدوارد سعيد» بالنشاط السياسي، وبعدها ظهرت مقالته السياسية الأولى (صورة العرب)، وعندما أطلقت رئيسة الوزراء الإسرائيلية «جولدا مائير»[5]* تصريحها عام 1969، والذي قالت فيه: لم يكن الأمر وكأن هناك شعبا فلسطينيا (...) إنهم لم يوجدوا[6]، قرر «سعيد» أن يضطلع بما أسماه بتحدي دحض ما ذهبت إليه، والذي يمازجه شيء من منافاة العقل، والشروع بانطلاق تاريخ الخسارة والفقدان الذي ينبغي أن نبوح به ونحرره دقيقة بدقيقة وكلمة بكلمة وإنشا بإنش.

ولسنوات طويلة، كان «إدوارد سعيد» هو المتحدث الرئيسي باسم القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة، وقد قال بخصوص ذلك: إن فلسطين قضية غير مجزية، فأنت لا تأخذ شيئا في مقابل التزامك بها سوى الازدراء والاضطهاد والنبذ (...) كم من الأصدقاء يتجنبون الخوض في هذه المسألة، وكم من الزملاء لا يرغبون في سماع أي خطاب فلسطيني، وكم يصرف الليبراليون المتحمسون من الوقت في الاهتمام بقضايا البوسنة والشيشان والصومال ورواندا وجنوب إفريقيا ونيكارغوا وفيتنام والحقوق الإنسانية والمدنيّة في أي مكان على وجه البسيطة، ولكنهم لا يفعلون شيئا من لك عندما يتعلق الأمر بفلسطين.[7]

---

4 إدوارد سعيد، (2006) الثقافة والمقاومة، ط1، حاوره دايفيد بارسيمان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، المشروع القومي للترجمة، بيروت، ص 13

5* جولدا مائير גולדה מאיר: ولدت مايو 1898 8 ديسمبر 1978م، رابع رئيس وزراء للحكومة الإسرائيلية بين 17 مارس 1969 حتى 1974م.

وُلدت جولدا مابوفيتز في مدينة كييف بأوكرانيا وهاجرت مع عائلتها إلى مدينة ميلواكي في ولاية ويسكونسن الأمريكية عام 1906 م .تخرجت من كلّية المعلمين، وقامت بالعمل في سلك التدريس وانضمّت إلى منظمة العمل الصهيونية في عام1915 م .ومن ثمّة، قامت بالهجرة مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة إلى فلسطين وبصحبة زوجها موريس مايرسون في عام1921 م. ولمّا مات زوجها في عام1951 م، قررت جولدا تبني اسم عبري فترجمت اسم زوجها إلى العبرية، بالفعل يعني اسم مايرسون «ابن مائير «باللغة اليديشية وقررت جولدا مائير اختصاره.

انتقلت جولدا إلى مدينة تل أبيب في عام1924 م. وعملت في مختلف المهن بين اتّحاد التجارة ومكتب الخدمة المدنية قبل أن يتمّ انتخابها في الكنيست الإسرائيلي في عام1949 م. عملت جولدا كوزيرة للعمل في الفترة 1949 إلى1956 م وكوزيرة للخارجية في الفترة 1956 إلى1966 م في أكثر من تشكيل حكومي.

وبعد وفاة رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول في فبراير 1969، تقلّدت جولدا منصب رئيس الوزراء وقد تعرّضت حكومة التآلف التي ترأستها للنزاعات الداخلية وأثارت الجدل والتساؤلات في مقدرة حكومتها على القيادة خاصّة بعد الهجوم العربي المباغت وغير المُتوقع في حرب أكتوبر، والذي أخذ الإسرائيليين على حين غرّة في 6 أكتوبر 1973م. تعرّضت جولدا مائير لضغوط داخلية نتيجة الأحداث التي سلفت فقامت على تقديم استقالتها وعقبها في رئاسة الوزراء اسحاق رابين. توفيت جولدا مائير في8 ديسمبر 1978م ودفنت في مدينة القدس. (نقلا عن موقع ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki)

6 المرجع نفسه، ص 13

7 المرجع نفسه، ص 13

وبفعل مواقفه الناقدة والفاضحة، دفع «إدوارد سعيد» ثمنا باهظا مسّ سمعته ووظيفته بما لحقه من متابعات ومضايقات بسبب تمسكه بالقضية الفلسطينية، فوسم بأنه (فيلسوف الإرهاب) ودعته قائمة الدفاع اليهودية بالنازي، وتم إحراق مكتبه في جامعة كولومبيا، وتلقى هو وأفراد عائلته تهديدات بالموت لا حصر لها.

ظّل سعيد عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني لأكثر من عقد من الزمن، احتمل خلاله نقمة القوميين العرب بسبب دفاعه عن (فكرة التعايش بين اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين العرب) وقد كتب متحدثا عن ذلك: كنت أوجه نقدا صارما لاستخدام الشعارات والكليشيهات نحو الكفاح المسلح، ولروح المغامرة الثورية التي نجم عنها موت الأبرياء، وفي وقت تسهم فيه بإحراز أي تقدم للقضية الفلسطينية على الصعيد السياسي[8].

ومنذ استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني عام 1991، أصبح «إدوارد سعيد» واحدا من أبرز المناهضين علنا «لياسر عرفات» ولما يسمى بعملية السلام، وظلّ صوتا متفردا للمقاومة الفلسطينية، وسط اللغط الذي ساد توقيع اتفاقية أوسلو في الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض في أيلول 1993. وقد أدرك «سعيد» على الفور معنى أوسلو وأسماها بفرساي الفلسطينية، وهو الذي قال معلقا على ذلك الحدث: كان «كلينتون» أشبه بإمبراطور روماني يجلب ملكين تابعين من ملوك الإقطاعيات إلى بلاطه الإمبراطوري ويدفع بهما الى التصافح[9].

كان «إدوار سعيد» على قناعة كبيرة بحقيقة أن اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين منضوون ديمغرافيا على نحو يتعذر تغييره.

قام «إدوارد سعيد» على غرار باقي المثقفين الفلسطينيين بقراءة تاريخ الحوارات التي كانت تدور في داخل حركة المستوطنين الصهاينة. خاصة لمقالات أشخاص من ذوي الوزن الثقيل من أمثال: مارتن ببر، ويواده ماجنيس، الذي كان أول رئيس للجامعة العبرية والفيلسوفة حنا أردنت، وقد شكّل هؤلاء جميعا مفكرين عالميين بارزين، والذين أدركوا أن صداما سوف يحدث إذا ما استمرت حركة الاستيطان بطريقة عدائية. وطالما تم المضي قدما في تجاهل العرب على نحو يتسم بالطيش، وكان «دافيد بنغوريون» قد صرح قائلا: في الحقيقة بأن التاريخ برمته لم يشهد حالة يستسلم فيها شعب ببساطة ويسمح لشعب آخر بالاستلاء

8 المرجع نفسه، ص 14

9 المرجع نفسه، ص 14

على أرضه[10]. وهكذا، فإن هؤلاء الأشخاص كانوا يستشرفون حتمية نشوب الصراع والأزمة بين فلسطين وإسرائيل، خاصة «ماجنيس» الذي كان مثاليا حقا.

يرى «إدوارد سعيد»، أنه كلما أمعن المرء في القراءة عن المفكر «ماجنيس» والتأمل فيه، وجد فيه روحا متميزة ورجلا تقدم بأشواط على عصره. كان أمريكيا، وهو أمر يثير الاهتمام، والذي قال: دعونا نفكر بالعرب على أساس أخلاقي وعميق. لنفكر بهم على أساس وجودهم وليس على أساس غيابهم[11]. وفي نفس السياق يقول «إدوار سعيد»: عندما أقابل العرب الآن أو أذهب إلى البلدان العربية، فإنني أقول لهم خصوصا للمصريين: يمكنكم الذهاب إلى فلسطين، يمكنكم العبور من إسرائيل لأن إسرائيل ومصر في حالة سلام. يمكنكم الاستفادة من ذلك في الذهاب إلى فلسطينيين ومساعدتهم في بناء مؤسساتهم، يمكن لكم الظهور والتحدث والمكوث هناك لبعض الوقت وتدريبهم. فيقولون: كلا، لا نستطيع أن نصم جوازات سفرنا بالأختام الإسرائيلية، لن نذهب إلى السفارة الإسرائيلية للحصول على تأشيرة، ولن نخضع للإهانة التي ينطوي عليها تفتيشنا من قبل رجال الشرطة الإسرائيليين على الحدود والحواجز[12].

سعى «إدوارد سعيد» في كتاباته النضالية، إلى تحرير العقول المقيدة برمزيات الاحتلال بنوع من النقد الذاتي، حتى تكون عملية الانخراط في العالم بصورته الواقعية ممكنا. بما أن الفلسطيني في نظره قد عانى كثيرا من التقوقع الدفاعي ومن الإحساس المفرط بالاضطهاد والسخط بمختلف أشكاله، وكل هذا يحدث نتيجة غياب الديمقراطية.

إن السبب فيه لا يعود فقط إلى استبداد الحكام ولا إلى مؤامرات الإمبريالية، وهو لا يتعلق بوجود أنظمة الحكم الفاسدة ولا البوليس السري وحسب، بل هو يعود في نهاية المطاف إلى افتقار مثقفينا إلى الإحساس بالمواطنة.

وفي هذا الشأن «يقول إدوارد سعيد»: إن الكثير من تاريخنا قد جرى طمسه. إننا أناس غير مرئيين، وتعود قوة وهيمنة الرواية الإسرائيلية إلى كونها تعتمد كلية تقريبا على نوع من الرؤية البطولية للرواد الذين قدموا إلى صحراء. لم يتعاملوا في نهاية المطاف مع سكان محليين دوي وجود راسخ ومتجذر، ويعيشون في البلدات والمدن ويمتلكون بنيتهم الاجتماعية الخاصة، بل مع مجرد صحراء يقطنها بدو هائمون على

10 المرجع نفسه ص 22
11 المرجع نفسه، ص 22
12 المرجع نفسه، ص 31

وجوههم، حيث يسهل طردهم. إن قيام الصهيونية برسم صورة البدوي الهائم كان إجراء في منتهى التعقيد، لكن الصهيونية عمدت بالتأكيد إلى استخدامه في التعامل معنا كشعب[13].

غالبا ما دعا «سعيد» في مداخلاته إلى ضرورة خلق التطبيع الحقيقي بين الفلسطينيين والإسرائيليين لا المزيف، حيث يمكن للإسرائيليين أن يكونوا جزءا من الشرق الأوسط وليس معزولا مرتبطا بالغرب على نحو كثيف، بينما يقوم بازدراء وتجاهل وإنكار حقوق الفلسطينيين.

يجب إيجاد طريقة حيث يصبح دور العقل والثقافة والوعي الأخلاقي دورا حاسما فيها، ولا بد أن تكون هناك طريقة ملائمة للتعامل مع (الآخر) وإفساح مكان له في مواجهة فكرة عدم وجود الحيز حسب «إدوارد سعيد». وهكذا، فإن هذا الطرح يبتعد كل البعد عن اليوتوبيا والتوهم.

إن اليوتوبيا تعني اللامكان، بينما يعني هذا الطرح توضيعا للآخر في حيز (ما)، وهذا هو السبب وراء فكر «سعيد» حول ضرورة قراءة الخرائط والجغرافيا وخلق الحيز الذي يتسع للكل ويشملنا جميعا.

يرى «إدوارد» أن الوضع الفلسطيني قابل للشفاء، بما أن كائناته البشرية هي التي صنعت التاريخ وليس العكس. هناك الكثيرون من الفلسطينيين الشباب في كل بقاع العالم والكثرين من الكبار الذين سخطوا تماما وفزعوا من قيادة تخرجهم من مصيبة لتدخلهم في أخرى دون أي شعور بالمسؤولية، ودون إفصاح بالحقيقة وحتى دون أن تعبر بوضوح عن أهدافها وأغراضها.

يقول «ادوارد»: نحن نحتاج إلى شيء يتطلّبه الوضع الآن ويقاومه كل الفاعلين، وبعبارة أخرى نحتاج إلى بيان حقيقي بالأهداف والغايات التي يجب أن تتضمن أولا وقبل كل شيء إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وإنهاء المستوطنات، فليس هناك طريق يؤدي إلى السلام ويحقق العدالة للفلسطينيين والإسرائيليين غير ذلك[14].

يؤمن «سعيد» أنه لا يوجد شيء اسمه سلام مؤقت، كما أنه ليس هناك بعض حقوق للشعب الفلسطيني دون غيرها فهذه تفاهة غير مقبولة. مجموعة واحدة من القوانين والحقوق، ومجموعة من الأهداف والغايات، على ذلك الأساس يمكن تنظيم حركة سلام فلسطينية جديدة، يجب أن تشمل يهود إسرائيل وغير إسرائيليين، خصوصا الأفراد الأبطال والمجموعات، مثل حاخامات حقوق الإنسان والحركة التي يقودها «جيف هالبر» لإنهاء هدم البيوت.

13 المرجع نفسه، ص 32

14 إدوار سعيد، خيانة المثقفين، مرجع سابق، ص 321

يؤكد «سعيد» أن كل وثائق حقوق الإنسان في العالم اليوم بما فيها وثائق الأمم المتحدة، تعطي الشعوب حق المقاومة بأية وسيلة، حين تكون تحت نير الاحتلال وحق اللاجئين بالعودة إلى بيوتهم وأرضهم، كما أنه عارض بشدة التفجيرات الانتحارية في تل أبيب، لأنها لا تخدم أي هدف سياسي أو أخلاقي، وهي غير مقبولة أخلاقيا أيضا. وهناك فرق كبير بين العصيان المنظم أو الاحتجاج الجماهيري من جانب وتفجير الشخص نفسه مع عدد من الأبرياء من جانب آخر، ويجب أن يبين هذا الفرق بشكل واضح ومؤكد وينقش إلى الأبد في أي برنامج فلسطيني.

دعا «سعيد» إلى حق تقرير المصير للشعبين؛ حقوق متساوية ومستقيمة بشكل واضح، حق تقرير المصير للشعبين حقوق متساوية لكليهما، لا احتلال ولا مستوطنات، حل يشمل جميع الأطراف أيا كانت المفاوضات التي أقحمنا فيها يجب أن تكون على ذلك الأساس.

هذه هي الحقائق اليوم، وجوهرها عدم التناسق الهائل والتباين الكبير في القوة بين إسرائيل والفلسطينيين، لهذا يجب علينا أن ننتزع الأرضية الأخلاقية مباشرة بالوسائل السياسية التي تزال في متناولنا وقوة التفكير والتخطيط والكتابة والتنظيم. فمن المحزن أن القيادة الحالية تبدو عاجزة تماما عن فهم ذلك، لذلك يجب أن تتنحى جانبا وسوف تتنحى بالتأكيد عند نقطة ما[15].

فلسطين في الفلسفة الغربية المعاصرة

يعود اهتمام الفلسفة الغربية وفلاسفتها بفلسطين ومكوناتها الثقافية كموضوع، لما قبل حدث النكبة (1948)، وبالتحديث إلى العصر الحديث، خاصة عندما انفتح فلاسفة هذا العصر على قراءة المكونات البشرية وللتفاعل الديني الذي ميّز المنطقة، حيث نجد فلاسفة كثر اهتموا بالمسألة اليهودية ومدى حضورها في تاريخ المنطقة.

من بين فلاسفة العصر الحديث الذين اهتموا بالفكر اليهودي في فلسطين نجد «هيجل»، والذي رأى أن بداية ملحمة الشعب الفلسطيني بمكتل مكوناته بما فيهم اليهود، تعود إلى النبي «إبراهيم» وفي هذا الشأن يقول هيجل: مع إبراهيم الجد الحقيقي لليهود، يبدأ تاريخ هذا الشعب، أي أن روحه هي الوحدة، هي الروح التي بقيت تسيّر ذريته[16].

15 المرجع نفسه، ص 323

16 جان هيبوليت، (1975) مدخل إلى فلسفة التاريخ عند هيجل، (دط) ترجمة: أنطوان حمص، وزارة الثقافة، دمشق، ص 08

وهو يضيف دون شك أن هذه الروح، تعبر عن نفسها في مظاهر مختلفة حسب الظروف وحسب صيغ المنازعات التي جرت بين الشعب اليهودي وشعوب أخرى، وغالبا ما جرى الإلحاح على تاريخ «إبراهيم» الذي استعاده «هيجل» عدة مرات في نصوصه الفلسفية، وذلك لأن «هيجل» يكشف في تاريخ «إبراهيم» عن السمات المميزة البارزة لدى شعب اليهود.

حسب هيجل، يمكن أن نقول إن الضياع الذي فلسفه الفيلسوف الفرنسي «جاك دريدا» قد امتزج مع طينة اليهودي منذ القدم.

ولد النبي «إبراهيم» بحسب «هيجل» في بلاد كلدان، فكان عمله الأول هو الانفصال عن أسرته وعن شعبه، هجر أسرته ووطنه هربا من طغيانهم ومحطما كل صلاته بهم، هي نفسها الصلات المتعاقبة عبر الأجيال. انفصال مزق مصير الشعب؛ فاليهودي يريد أن يصبح سيّدا على نفسه مستقلّا في عالمه، وجد ليصبح من أجل ذاته حسب اللغة الهيجيلية. فهذا الانفصال عن الطبيعة هو أعمق الجذور اليهودي منه لدى سواهم من الشعوب.

الروح اليهودية حسب هيجل معاد للعالم وللناس وللآخرين وللعالم، لأن روحهم وجدت مهاجرة وبقيت على حالها، مفقودة في العالم، بقيت غريبة على الشعوب التي تعاملت معها، لأنها لم تملك أرضا معينة بصدق لزراعتها، فكانت غريبة فوق هذه الأرض، تولد عنه عداء حيال الأرض مما أدى إلى عداء حيال الآخرين.

الروح اليهودية وفق قراءة هيجل لها في كتابه العمدة «فينومينولوجيا الروح»، لا تريد الحب، وبسبب هذا الكره المقيت حدث انفصال عن الطبيعة، وسبب هذا السلوك هو الرجوع إلى الذات الذي يضع حدا للعفوية الحية. فلم تعد تستطيع اعتبار الأشياء على أنها حية، لم تعد بالنسبة إليه أكثر من أشياء يحتاج إليها لإمتاع نفسه ولضمان نفسه ولضمان أمن ذريته، فلم تعد هناك بينه وبين العالم أكثر من علاقات موضوعية تنحصر في حلقات التفكير، أما علاقات الحب فلم تعد ممكنة. ولا شك في أن هذا التمزق، يشكل برهة أساسية في حياة الروح اليهودية، حيث أن طابعها الأساسي حسب هيجل هو عداؤها لكل القيم الحيوية كالبطولة وحب الأمم مثلا. ولكن هذا الطابع ساعد على اكتشاف كل ما هو مرتبط بالرجوع إلى الذات من قيم عقلية وقيم روحية والاهتمام المحصور بالذات الذي هو عبارة عن سمو كلي مجرد[17].

17 مونيس بخضرة، (2009) تاريخ الوعي "مقاربات فلسفية في جدلية ارتقاء الوعي بالواقع" ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، ص 215

في تحليله للروح اليهودية، يظهر أن هذه الروح تبيت عداء للحياة والذكاء. إن التفكير الكلي هو الروح اليهودية الذي حطّم الحياة ولم تعد هناك من علاقات ممكنة التصور بين الكائنات سوى علاقات السيد والعبد. فالرغبة في الحياة لم تضمحل على هذا النحو، ولكنها فقدت جمالها وسحرها بالرجوع إلى الذات، فكان مصير الروح اليهودية أن تعيش منفصلة عن الإله وعن الناس، لأنها اكتفت بذاتها ليبقى مثلها الأعلى هو التطلع لما هو خارج عن ذاتها، ولأنها مفصولة عن هذا المثل الأعلى بقيت خارج الحياة.

إن الوعي اليهودي هو بحق وعي شقي الذي عبر عنه هيجل في فينومينولوجيا الروح، والذي به لا يريد اليهودي أن يقطع معه سوى مسافة قصيرة بدون زاد ليوم القيامة، يقول دريدا: الألم هو القدر الذي ينادي اليهودي ويجعله وسيطا بين الصوت والعدد، القدر الذي يرثي الصوت المفقود ويذرف الدموع السوداء (...) لقد توجه إليّ أحد أبناء طائفتي كثير اعتدال بقوله ألا يعني عدم التمييز بين اليهودي وغيره فقدان الهوية اليهودية؟[18]

بدأ اهتمام الفلاسفة المعاصرين بالمسألة الفلسطينية بشكل مكثف، بعد احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية سنة (1948)، وما أنجر عنه من مجازر مروعة ارتكبت في حق الفلسطينيين، وأيضا مع توسع المد التحرري في العالم، وظهور فلاسفة اهتموا بمسألة حرية الإنسان وحق النضال، وضرورة المواجهة والمقاومة، ومن بينهم: نجد فلاسفة الوجودية وعلى رأسهم «جان بول سارتر» و«سيمون دي بوفوار» و«روجيه غارودي» و«جاك دريدا» في فرنسا. أما في ألمانيا، نجد كل هابرماس وحنا أرندت، وفي أمريكا نجد: «نعوم تشوميسكي».

اهتمت الفيلسوف اليهودية «حنا أرندت» بتفكيك الفكر الشمولي وطغيان المؤسسات باسم القانون، وقد حللت أسباب تجذّر الشر في العلاقات بين الشعوب المعاصرة، بما فيها الذي تعرض له اليهود في الحقبة النازية، فهي تقول: بينما نجد ملامح ذلك الشر الجذري لدى «أدولف هتلر» الذي ظهر في أحد أقول كتابه «كفاحي» بشكل علني: إن ما من فعل مغاير للأخلاق وما من جريمة بحق المجتمع إلا ولليهود يد فيها[19].

وفي كتابها «إيخمان في القدس» انتقدت «حنا أردنت» لجوء اليهود إلى العنف، كسبيل وحيد في فرض وجودهم، وهذا السبيل في نظرها هو نقيض جوهر الروح اليهودية. إن القناعة بأن المعاداة للسامية موجودة في كل مكان وزمان جعلت اليهود غير قادرين على التمييز بين أصدقائهم وأعدائهم

18 ادموند جابيس، (2003) أسئلة الكتابة أو حوار الفلسفة مع الأدب، ط1، ترجمة إدريس كثير، دار الحداثة، فاس، ص 107

19 حنة آرنت، (2014) ايخامن في القدس، تقرير حول تفاهة الشر، ط1، ترجمة: نادرة السنوسي، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية، ناشرون ص 18

حسب زعمها، ولم يكن اليهود الأمان لوحدهم القادرين على الاستهانة بأعدائهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن كل المسحيين متشابهون.

وفيما حدث لليهود، تتساءل «حنا أرندت» لماذا يتسلط القدر هكذا على الشعب اليهودي؟ وألا يمكن أن تتصوروا بأنه لا يمكن تفسير قدر هذا الشعب إلا بتصميم غير منطقي؟ بنوايا توجد في مستوى أعلى من فهم الانسان؟ في إشارة منها إلى هيجل.

لقد صرح «غوبلز»[20] أيضا سنة (1943) قائلا: سيذكرنا التاريخ، سنكون من كبار رجال دولة أو من كبار المجرمين. ومن الأكيد أيضا، أن الشعب اليهودي لم يكن في مجمله منظما، ولا يملك أرضا، ولا حكومة، ولا جيشا، عاش تائها بلا نظام[21].

اهتم الفيلسوف الأمريكي «نعوم تشومسكي» بما يحدث في عالمنا المعاصر من موجات عنف حادة، وصدامات بين الدول والشعوب، وتزايد موجات الإرهاب العالمي، والذي رأى أن سببها الرئيس إلى إخفاق الساسة في إدارة الأزمات المعاصرة.

فقد سبق لتشومسكي وأن اعتقد أنه لا توجد فروقات بين رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية المتأخرين في تعاملهم مع القضية الفلسطينية، فمثلا الرئيس «باراك أوباما» كرر فحسب مواقف «جورج بوش» ويستعمل نفس العبارات في الواقع. فقد دعا إلى دولة فلسطينية كبوش تماما وترك ما يعنيه بذلك غامضا. لهذا يمكن تفسير قوله كموقف نتنياهو عام 1997 حين كان أول رئيس وزراء إسرائيلي يؤيد قيام دولة فلسطينية وهي حقيقة ربما نسيت حسب «تشومسكي». وأيضا ترك «شيمون بيرس» المنصب مصرحا بقوة أنه لن تكون هناك دولة فلسطينية أبدا، حين سئل وزير الاعلام في حكومة نتنياهو إن كان سيتبنى نفس السياسة، أجاب إذا أراد الفلسطينيون أن يسموا البقايا المتروكة (دولة) فذلك رائع، أو يستطيعون تسميتها بـ: (الدجاج المقلي). نحن نعرف إن كان أوباما يقصد (الدجاج المقلي) أم غير ذلك ونعرف أنه تملص بحذر شديد من جوهر مبادرة السلام العربية التي امتدحها، وهي صورة رفيعة لانتقاد «تشومسكي» لطريقة تعامل الإدارة الأمريكية مع الملف الفلسطيني[22].

20 بول جوزف غوبلز (1945/1897) هو وزير الدعاية السياسية في حكومة هتلر النازية وأكبر خطيب في النظام النازي، انظم للحزب النازي منذ1922ومن أشهر أقواله: كلما سمعت كلمة مثقف تحسست مسدسي، وفي غزة ماي 1945 عندما يتقن من هزيمة ألمانيا في الحرب، لأقدم على الانتحار مع زوجته وأطفاله الستة وأعمارهم بين 4-11 سنة. ص 54

21 حنا أرندت، إيخمان في القدس، مرجع سابق، ص 174

22 نعوم تشومسكي، (2010) أشياء لن تسمع بها أبدا "لقاءات ومقالات، دط، ترجمة أسعد الحسين، دار نينوى، 2010، ص 32

أظهر تشومسكي تعاطفا كبيرا مع الشعب الفلسطيني، وتألم كثيرا لما حدث لشعب غزّة، خاصة وأنه اعتبر حماس ممثلا شرعيا، بعد أن فازت بانتخابات حرة جرت في كانون الثاني 2006 لكن إسرائيل والولايات المتحدة ويتبعهما الاتحاد الأوربي بأدب ردوا بعقبات قاسية على السكان بسبب هذه الخطيئة حسب تشومسكي. إن المطلعين على التاريخ الحديث يدركون بأن هذا الرد غير مفاجئ ولا رفض الطبقات المثقفة مواجهة ما يشير إليه هذا الرد بخصوص مفهوم (تعزيز الديمقراطية) أيضا. بعد ذلك سجنت إسرائيل الكثير من أعضاء الحكومة المنتجة وحرضت مع الولايات المتحدة فتح للقيام بانقلاب عسكري للإطاحة بالحكومة، وحين فشل الانقلاب أصبحت العقوبات أقسى على السكان ثم دعمت الولايات المتحدة البرامج الإسرائيلية الهادفة إلى سحق أهالي غزة وتوسيع النفوذ الإسرائيلي على الضفة الغربية، واستمرت الولايات المتحدة وإسرائيل برفض الاجماع العالمي القديم بتسوية الدولتين[23].

يرى «تشومسكي» أن «المشكلة الفلسطينية الإسرائيلية» تعود إلى أن هناك مجموعتين قوميتين تطالبان بحق تقرير المصير فيما كان يسمى بفلسطين، وهي تقريبا المنطقة التي تحتلها إسرائيل الآن بدون مرتفعات الجولان التابعة لسوريا.

المجموعة الأولى هي السكان الأصليين أو ما تبقى منهم، بعد أن طردت إسرائيل أو أجبرت الكثيرين منهم على الفرار. والمجموعة الأخرى هي المستوطنون اليهود الذين جاءوا أصلا من أوروبا والشرق الأوسط في وقت متأخر وبعض المناطق الأخرى. لذلك، هناك مجموعتان، السكان الأصليون والمهاجرون وأسلافهم، وتطالبان بحقهما القومي في تقرير المصير.

أما بخصوص المفاوضات الجارية بين الفلسطينيين والإسرائيليين من أجل التسوية السياسية، هي تلك التي تلبي حق تقرير المصير لكلتا المجموعتين القوميتين هي تسوية الدولتين. كل شخص يعرف كيف ستكون إسرائيل: إسرائيل ضمن حدود ما قبل حزيران عام 1967 تقريبا ودولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة وعودة مرتفعات الجولان إلى سورية أو ربما تدبير آخر. سيترافق هذا مع مناطق منزوعة السلاح وضمانات عالمية من نوع أو آخر. ذلك هو الإطار السياسي لتسوية سياسية ممكنة. لا أعتقد بأنها الأفضل، وإنما هي الواقعية بل وواقعية جدا ويدعمها غالبية العالم[24].

والذي فيه رأى «أيان بابي» أيضا، أن ما يحدث اليوم في فلسطين يشبه كثيرا ما حدث في جنوب إفريقيا أيام التمييز العنصري، إذ يقول: توجد أشياء متشابهة وأخرى مختلفة أيضا. إن فصول التاريخ

23 المرجع نفسه، ص 34

24 المرجع نفسه، ص 134

الاستعماري كثيرة ويمكن إيجاد بعض جوانب التمييز العنصري في السياسات الإسرائيلية تجاه الأقلية الفلسطينية فيها وفي الأراضي المحتلة. إن بعض مظاهر الاحتلال أسوأ من واقع التمييز العنصري لجنوب أفريقيا وبعض مظاهر في حياة المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل لم تكن أسوأ من الوضع في جنوب أفريقيا أيام عز التمييز العنصري. النقطة الرئيسية للمقارنة حسب رأيي التشجيع السياسي.

إن الحركة المضادة لسياسة التمييز العنصري والمؤتمر الوطني وشبكات التضامن التي تطورت على مدى السنين في الغرب يجب أن تقوم بحملة دعم للفلسطينيين أكثر تركيزا وفعالية. لهذا السبب هناك حاجة أكبر لتعلم تاريخ الصراع ضد التمييز العنصري من المراوحة الطويلة في مقارنة الصهيونية بالأنظمة العنصرية[25].

في كتابه (الوطن المغتصب، إسرائيل والبحث عن الحل) تناول المفكر «مايكل رايس» أصول المسألة اليهودية، إذ رأى فيه أن اليهود كانوا هم شعب الله المختار في العهد القديم، لأنهم كانوا هم الشعب الوحيد الذي يعبد الله وسط الشعوب التي كانت تعبد الأصنام وهذا لا خلاف فيه، ولكن لم يعد الأمر كذلك اليوم، بعد أن ظهرت المسيحية والإسلام وأصبحت غالبية الناس يعبدون الله الواحد. أما عن الوعد بامتلاك أرض فلسطين، ففي نظره له جانبان: الأول والذي يؤمن به المسيحيون في الشرق فهو: الجانب الروحي الذي يعني ميراث ملكوت والحياة الأبدية. أما الجانب الثاني: فيعتمد على التفسير المادي لحقائق وأحداث الكتاب المقدس، وذلك الذي تأخذ به بعض المذاهب البروتستانتية، وهو التفسير الذي أوقع أتباع هذه المذاهب في براثن المؤثرات والادعاءات الصهيونية وجعلهم يساندون الصهيونية في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين اعتمادا على تفسير الوعد المقدس بأنه يعني تمليك اليهود للأراضي الفلسطينية.

أما عن اجتماع الشعب اليهودي في فلسطين وما يتبعه من اعتقادهم بإعادة بناء الهيكل، فهو أمر قديم وانقضى قبل مجيء المسيح نفسه، ذلك أن دولة إسرائيل القديمة قد انتهت على يد سرجون الثاني ملك آشور سنة 721 ق م، حيث استولى عليها وشتت أسباطها وأسكن السامرة غيرهم[26].

وفي هذا الكتاب يستعرض «مايكل رايس» حقيقة بارزة، وهي أن السكان اليهود في إسرائيل والذين أنشئت الدولة لأجلهم - سواء كانوا من أصول أوربية أو غربية - ليس لهم ادعاءات تاريخية أو قانونية أو أخلاقية حيال أرض فلسطين. وهذا يعني أن العدالة لن تتحقق ولن يدوم السلام إذا لم تتخلص إسرائيل من الصهيونية، ويصبح سكانها اليهود جزءا من دولة علمانية اتحادية.

25 المرجع نفسه، ص 359

26 مايكل رايس (2013) الوطن المغتصب، إسرائيل في فلسطين والبحث عن الحل، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ص 09

أما بالنسبة إلى عدم الاكتراث الذي يبديه المجتمع الدولي، فسيعطي إسرائيل القدرة على الاستمرار في زرع المستوطنات في الأراضي المحتلة لخلق حقائق جديدة بدون إزعاج للرقابة المستمدّة من الإعلام[27].

يعد الكاتب «إسرائيل شحاق» من بين أهم الذين انتقدوا الصهيونية وأعمالها في فلسطين، ففي محاضرات التي ألقاها في الولايات المتحدة في يونيو 1969ضجة كبيرة، وأقلقت من تشبعوا بالصورة المثالية عن المجتمع الإسرائيلي التي يبثها الإعلام الأمريكي، وقد قيل عنه آنذاك بأنه يهودي يكره الذات، وإنه خان اليهودية وتنكر لتاريخها، إذ تحدث بشأن اليهود مع غير اليهود. ولكنه بقي دوما يؤكد على ضرورة تطابق أقوال سياسي إسرائيل للعالم مع أفعالهم، وأن تبيت إسرائيل دولة يعيش فيها الناس من جميع الأديان والأجناس متمتعين بحقوق المساواة.

وهذا المفكر البولوني الأصل ولد في وارسو في 28 أبريل عام 1933 لأسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، وقد أذهلته مقولة (بن غوريون) الذي عده مثالا اقتدى به، حينا قال أمام الكنيست: إن إسرائيل بدأت حرب 65 لا للدفاع عن النفس بل لتأسيس أجزاء من مملكة سليمان. ومنذ ذلك الحين انتقد ما شاهده في إسرائيل من عنصرية ضد العرب الفلسطينيين.[28]

الخطر الأساسي الذي تمثله إسرائيل لجيرانها هو سياسة السعي نحو التوسع، التي أدت لحروب كثيرة، وكلما باتت إسرائيل أكثر تهودا وازدادت العقائد قوة وتطرفا، وقلت قدرة العقل على التحكم في السياسة الخارجية.

فهو كل يهودي يرغب في تحرير ذاته، اليهودي في نظره يحتاج لمواجهة مشاعره حيال معاداة الناس في العصور القديمة، منتقدا في الوقت نفسه كره اليهود للمسحيين والمسلمين معا، وجذور هذه النزعة في نظره تعود لأوقات حين اضطهد اليهود المسيحيين، فحسب ما يقوله التلمود، فإن محكمة الأحبار قامت بصلب المسيح بسبب الحث على الزنا وعلى عدم إطاعة الأحبار.

لقد اعتمد الدعم الشعبي لإسرائيل خلال الربع قرن العشرين على عدد من الأساطير أهمها أسطورة الأمن، والتي تعنى وجود مخاطر حقيقية تهدد بقاء الدولة العبرية في فلسطين، وهي أسطورة صنعت بدهاء لإقناع الناس وتشجيعهم، على تقديم المال لمساعدة إسرائيل عسكريا واقتصاديا، الأمان الإسرائيلي هي فكرة التي تقدمها حكومتا إسرائيل وأمريكا لمنع الفلسطينيين من تقرير مصيرهم في بلادهم.

---

27 المرجع نفسه، ص 17

28 إسرائيل شحاق، ولبر سنسر، ليفيا روكاش، ألفريد ليلينثال، (2003) روجيه جارودي، القلم الجريء: مفكرون غربيون ويهود انتقدوا الصهيونية، ط1، ترجمة البراق عبد الهادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 19

اعتمد الإسرائيليون في فلسطين عملية خلق عقلية قلقة مهوسة بالأمن، بهدف توحيد مستوطنين مهاجرين قادمين من أفريقيا وأسيا وأمريكا[29].

ومن بين المهتمين بالقضية الفلسطينية من قبل الفلاسفة الغربيين المعاصرين، نجد الفيلسوف الفرنسي «روجيه غارودي»، الذي ناضل بفلسفته لأجل القضايا الإنسانية العادلة، وفي هذا الشأن جاء كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسات الإسرائيلية) الذي يعد أحد أبرز النصوص المعاصرة التي فضحت مزاعم اليهود الدينية المضللة حول أرض فلسطين، ومن أهم الوثائق التي تدين الحركة الصهيونية. إذ تناول فيه تاريخ الحركة الصهيونية وسياستها منذ تكوينها حتى أواخر القرن العشرين. وبسبب مواقف «روجه غارودي» حول القضية الفلسطينية رفعت أكثر من قضية في حقه، لأنه شكك في حقيقة المحرقة التي أقامتها النازية لليهود، وهذا التشكيك في التاريخ الرسمي لأروبا في القرن العشرين لا يزال من المحرمات في فرنسا.

بدأ غارودي بقراءة بعض النصوص الدينية التي اعتمد الفكر الصهيوني، موضحا أن لهذه النصوص معاني تخالف كثيرا تلك التي تستند عليها الصهيونية لتبرير لإقامة دولتها على أراضي احتلتها وهجرت سكانها منها، مؤكدا أن الدين لا يبرر الإرهاب الإسرائيلي، بدءا بقتل 237 فلسطينيا في «دير ياسين» حتى قتل «باروش شتاين» للفلسطينيين الذين شردوا من قراهم التي تم تدميرها ومقتل الألاف من المدنيين من قبل شارون في عام 1982 ومسؤوليته مع الجنرال «رافال إيتان» عن قتل المواطنين في صبرا وشاتيلا.

وبخصوص هذه المسألة، يؤكد «غارودي» أنه لا يعادي السامية ولأنه في الواقع يذكر في أكثر من موقع أن هدفه هو كشف حقائق الفكر الصهيوني، وليس نقد أي دين سماوي.

انتقد «غارودي» الذين حوّلوا الدين إلى أداة سياسية وأفرغوه من محتواه الأصلي، وهذا النوع من الهرطقة مرض شاع في أواخر القرن العشرين، وعنه حارب التطرف الديني بمختلف أشكاله[30].

يرجع «غارودي» الصهيونية إلى سنة 1869، وهي السنة التي ظهرت فيها، تدل كلمة صهيونية على حركة سياسية أسسها «ثيودور هرتزل»، وهي حركة وطنية لم تنتج عن اليهودية، بل بعد بزوغ النزاعات الوطنية في القرن 19، و«هرتزل» يعد مؤسس الصهيونية السياسية التي كانت لحظة تأسيسها بعيدة عن الدين؛ فهو الذي قال: أنا لا أتبع وازعا دينيا (...) أنا علماني النزعة[31]. ولم يكن «هرتزل» مهتما بأرض مقدسة بعينها لتحقيق أهدافه الوطنية، كان سيقنع بأوغندا أو قبرص أو الأرجنتين أو موزمبيق أو الكونغو،

29 المرجع نفسه، ص 13
30 المرجع نفسه، ص 211
31 المرجع نفسه، ص 211

ولكن بعد اعتراض الكثير من اليهود، وبعدها اتجه إلى (الأسطورة العظيمة) متخذا القرار بتحويل الأسطورة العظيمة بالعودة إلى تاريخ حقيقي، حيث قال: فلسطين هي الوطن الذي عشنا في ربوعه في الماضي، الاسم وحده صرخة تجمع شعبنا (...) بالنسبة إلي، القضية اليهودية ليست مسألة اجتماعية أو دينية[32].

إن الصوت اليهودي حسب «غارودي» هو صوت المسدسات، إذ بات السلاح عندهم عقيدة جديدة، توراة أخرى في إسرائيل. بات العالم مقيد بجنون العنف، هذه اليهودية المنتصرة يهودية الأمم الأخرى التي تعلمناها منهم، يهود أمريكا جميعا مسؤولون عن هذا الخطأ، هذا التشوه، حتى أولئك الذين يرفضون القيادات الآثمة، بل يتطلعون بصمت، تخدير الحس الأخلاقي يؤدي إلى ضموره.

وفي الواقع منذ إعلان بلتيمور، وجدت الصهيونية راعيا قويا يحميها، وهو الولايات المتحدة، جرفت منظمة الصهيونية العلمية معارضة القلة التي تمسكت بالتراث الروحي اليهودي لأنبياء إسرائيل القدامى، وطالبوا بتكوين دولة يهودية لا مسكنا لليهود في فلسطين، حسب وعد بلفور أثناء الحرب العالمية الأولى.

في عام 1938 انتقد العالم «ألبرت أينشتاين» هذا الوعد قائلا: أعتقد أنه سيكون منطقيا أكثر الاتفاق مع العرب للحياة معا، بدلا من تكوين دولة لها حدودها، وجيشها، وقوتها العسكرية، مهما كانت ضعيفة، أخشى من الدمار الداخلي الذي ستعانيه اليهودية بسبب الشعور الوطني. نحن لسنا الآن يهود الأزمنة القديمة، أن تتحول ثانية إلى أمة بالمعنى السياسي يعني ترك روحية قومنا التي تركها لنا أنبياؤنا العظماء[33].

خلال غزو إسرائيل الدموي للبنان، ذكر البروفسور «بنيامين كوهين» من جامعة تل أبيب في رسالة إلى صديقي له يدعى «فيدال ناكيت» في 8 جوان 1982 ما يلي: أكتب لك وأنا أستمع إلى الأخبار في المذياع، يقولون: إننا سنحقق أهدافنا في لبنان، أي التأكيد على السلام، أكاد أصاب بالجنون حين أسمع لهذه الأكاذيب. أدرك أن هذه الحرب الهمجية، الأكثر وحشية من أي حرب أخرى، لا تتعلق بمساعي أمنية؛ فاليهود أولاد إبراهيم الذين عانوا وحشية العالم أكثر من أية أمة أخرى، كيف تحولوا إلى ممارسة القسوة؟ نجاح الصهيونية الأساسي هو في تدمير العقيدة اليهودية، أتمنى أن نستطيع إيقاف «بيغين» و«شارون» من تحقيق طموحاتهما، وهي القضاء على الشعب الفلسطيني وعلى إنسانية اليهود[34].

تحتاج أية قومية للتحرر من ادعاءاتها وأنانيتها، فبعد أن ضعفت الكنيسة المسيحية، ادعت كل أمة من الأمم لنفسها حق تمثيل الدين. فرنسا مثلا قالت إنها تنجز عمل الرب، وألمانيا ادعت أن الرب معها، إيفا

32 المرجع نفسه، ص 12

33 نقلا عن المرجع السابق، ص 216

34 المرجع نفسه، ص 216

بارون قالت: إن مهمة الأرجنتين هي أن تجلب الرب إلى العالم. وفي عام 1982 قال رئيس وزراء جنوب إفريقيا الذي دافع عن نظام التفرقة العنصرية ما يلي: دعنا نتذكر أننا أمة الله، ولنا وظيفة. فالصهيونية نفسها تشترك في هذا المدح للذات الذي تقوم به جميع الأمم، حتى البروفسور «أندر نيهر» يستسلم لهذا الإغراء، ففي كتابه (أسس النبوة) بعد أن يفسر معنى ارتباط الخالق بعبده.

كتب أن إسرائيل هي الدلالة على التاريخ المقدس في العالم، إنها مركز الكون، وقبله النابض. وهذا التعليق، يذكرنا بأسطورة الرجل الأبيض التي تأسس على أساسها الفكر النازي الذي يتناقض تماما مع ما علمه الأنبياء، وهذا ما نادى به «مارتن بوبر» حين تحدث عن الأنا والآخر، والنزعة الوحدوية التي تستند إلى الغرور لا تتيح أي إمكانية للحوار، لا يستطيع المرء التحدث مع هتلر، بسبب شعوره بأنه ينتمي لجنس أعظم، ولا يتوقع مع الآخر سوى الطاعة العمياء. وفي عصرنا لا يوجد إلا الحوار أو الحرب، ولكن الحوار يتطلب أن يعرف كل طرف ما يفتقده واحتياجه للآخر لملء الفراغ.

ومن بين الأساطير التي فككها «روجيه غاروي» في كتابه السابق بالفحص والنقد نجد:

- أسطورة الوعد: أو الأرض الموعودة أم المحتلة، والتي إلى ما ورد في سفر التكوين، حيث وعد الرب الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب بالأرض التي كانوا قد بدأوا باستيطانها، وهذا الوعد ينطبق على أرض فلسطين المعاصرة.

2- رؤية اليهود لإسرائيل: قال الحبر «آلمر برجر» المدير السابق لاتحاد اليهودي في أمريكا: حين طلب الأنبياء القدامى إحياء لإسرائيل، لم تكن القداسة قد وهبت للأرض ذاتها. الشرط الأساسي كان إحياء التعاقد مع الرب، في وقت حين كسر الناس وملوكهم هذا التعاقد، التعاقد في المخيال اليهودي لا يشمل الأرض فحسب، بل احترام المبادئ التي سنّها الرب مع الشعب، لا بد للأفراد من تطبيق قوانين العدالة، الحق والإخلاص للرب، صهيون لا تعتمد على معاهدات، وموازين قوى، تجعلها أقوى من جيرانها، التراث الديني يوضح أن القداسة لا تعتمد على التراب، أو على حضور شعب على قطعة أرض، الشيء الوحيد الذي يجعل صهيون مقدسة هو احترامها للتعاقد الرباني.

وفي هذا الإطار، يرى «غارودي» أن دولة إسرائيل لا يحق لها أن تدعي أنها تحقق المشروع المقدس، فذلك نفاق. الصهيونية المعاصرة في إسرائيل، التي تود التحكم في الشعب اليهودي بأسره، وتستخدم القوة لتحقيق ذلك الغرض، عبارة عن دولة مثل غيرها من الدول.

3- أسطورة الشعب المختار: وتستند إلى زعمهم أن الرب قال: إسرائيل ابني البكر[35].

24- أسطورة يشوع: التطهير العرقي.

وقد سبق أيضا لإدوارد سعيد هو الآخر، أن كشف عن أغاليط الأساطير الدينية الصهيونية التي حاولت طمس الهوية الفلسطينية والتاريخ الحقيقي لشعب فلسطين، وادعت بأن أرض فلسطين أرض بلا شعب، واليهود شعب بلا أرض، وعرّ التحالف القائم بين إسرائيل وأمريكا وأوروبا.

حيث خاطب سعيد الإنسان في إنسانيته وليس في هويته، ورأى بأن حقوق الإنسان واحدة للبيض وسود، وأهمها الحق في العيش وفي حرية التعبير وحق تقرير المصير، وانتقد العنصرية والتمييز والاستبداد، ودعا إلى المساواة والديمقراطية والإنسانية، وتساءل عن سبب استحواذ النضال الفلسطيني على اهتمام العالم[36].

كما انتقد سعيد أيضا الإعلام الأمريكي، عندما ربط المقاومة الفلسطينية بالإرهاب دون أدنى انتباه إطلاق إلى الاحتلال العسكري القائم منذ 35 سنة. الأطول في التاريخ الحديث نتيجة لإدانات أمريكية رسمية لسلطات عرفات كملاذ وحتى برعاية الإرهاب.

وفي الأخير جاء «جاك دريدا» بفلسفته التفكيكية في محاولة منه لتجاوز الثنائيات التي تجذرت بفعل الميتافيزيقا، والاستراتيجية ذاتها اعتمدها «دريدا» في رؤيته للجدل الحاصل بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وفي معظم حواراته حول هذه القضية، تمكّن «دريدا» ببراعة من تجاوز الإطار السياسي والإيديولوجي المهمين على الموضوع، لتناولها في إطارها الثقافي والمعرفي. يقول: هل كان لثقافة أثينا العالمية أن تنبثق وتنشأ من غير الاستعارة والاقتباس من بابا ومصر؟ هل بمقدورنا إنكار حقيقة الاعتقاد الأوروبي باليهودية-المسيحية قد ظهر أولا في أراضي الشرق الأوسط؟ هل كان لتعاليم أرسطو والفلسفة اليونانية أن تعود إلى قلب أوروبا بعد عصر الظلمات، لو لم يكن ذلك بفضل عمل المفكرين العرب العظماء أمثال ابن سينا وابن رشد؟ ثم، أو ليست المسألة هي أن الثقافات المنوية (المؤسسة) كالثقافة البيزنطية والأندلسية كانتا في ذاتهما الوعاءين الصاهرين للثقافات والعقائد الهجينة؟ وأخيرا، ها نحن نسأل إذا ما كانت تذكرات أوروبا عن نفسها اليوم ينبغي أن تتضمن كلا من استعادتها لإرثها الثقافي الغني، وأيضا إقرارها بالخطايا التي ارتكبت باسمها من الهيمنة الكولونيالية، إلى الاستغلال الاقتصادي، وتبديد موارد البيئة وإفسادها؟[37]

35 المرجع السابق، ص 224

36 إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، النصوص الأخيرة، مرجع سابق، ص 27

37 ريتشارد كيرني (2005) جدل العقل «حوارات آخر القرن، ط1، تر: إلياس فركوح وحنان شرايخة، المركز الثقافي العربي، ص 11

ويرى «دريدا» أنه من الضروري التفكير بعمق بهذا التكوين الترابطي بين اليونانيين واليهود، إذ يقول: بالمقابل أرى أن فكرتي الخاصة ليست راجعة للثقافة اليهودية وليست لليونانية كذلك، وغالبا ما أشعر بأن الأسئلة التي أحاول أن أصوغها عن هوامش تعاليم الفلسفة اليونانية تتضمن كمثيلتها (الآخر) نموذج اليهودي، بمعنى اليهودي - بوصفه آخر. وبالمفارقة أنني، في الحقيقة، لم أستحضر أبدا التعاليم اليهودية بأية طريقة: مباشرة أو غير مباشرة. وعلى الرغم من أنني ولدت يهوديا، إلا أنني لا أعمل أو أفكر ضمن التعاليم اليهودية. لذا إذا كان البعد يهودي لتفكيري - والذي يمكن أن يكون قد ظهر بين وقت وآخر - إلا أن هذا لا يفرض شكلا من أشكال الإخلاص الصريح أو الدين لهذه الثقافة. فإن الموقع الأقصى لموضوع سؤالي لا يمكن أن يكون عبريا أو هلينيا على حد سواء (لا-موقع)[38].

اليهودية تظهر في فلسفة دريدا في أسلوبه في توظيفه لمفاهيم مطمورة في الوجدان العبري، فاليهودي حسب دريدا يوناني في الكتابة، واليوناني هو اليهودي في الكلمة فنموذج اليهودي كنموذج لتفكيك الفكر والعمل ضمن تعاليم اليهودية الحية، لذا كانت أبعاد يهودية في مشروعه[39]. يقول دريدا: إن ما نعرفه اليوم بأن اللاهوت المسيحي واليهودي ما هو إلا إيمان ثقافي تمت صياغته هيلينيا بدرجة كبيرة[40].

اليهودية عند «دريدا» تمثل نوعا من المغايرة اللآخرية قبل أن يتم استيعابها في الثقافة اليونانية تحتم عليها أن تسود العالم كما سادته اليونانية، لأنها هي الأخرى كانت تضايق الهويات الغربية في الفلسفة، لهذا فإن التفكيك السري للعقل اليوناني نشأ منذ البدايات الأولى للثقافة الغربية بتأثير يهودي، وأنا الآن - يقول دريدا - أعمل على الكشف عن عمله فقط كعمل نبوي، لأنني برزت في أوقات الأزمات الاجتماعية والتاريخية والفلسفية، كما برز الأنبياء في وقت مضى، الشيء الذي تغير بيننا، يقول دريدا، هو لهجة الأنبياء التي تغيرت عن سالفاتها في الماضي.

فالنبوة حسب اعتقاد دريدا تقترب كثيرا من الفلسفة، تختلف عنها فقط في استغنائها عن المعايير لأنها هي ذاتها معيار، وهي ترفض بذلك التسليم لأي تحكيم خارجي يمكن أن يحكم عليها أو يقيمها بطريقة موضوعية محايدة؛ فالنبوة تصرح لإيمانها بالغيبيات وتجد مرجعيتها في إيمانها بالوحي وليس بالمعايير الواقعة وراء نطاق الخبرة البشرية كما هو الشأن في الفلسفة.

38 المرجع نفسه، ص 164

39 مونيس بخضرة، تاريخ الوعي، مرجع سابق، ص 213

40 ريتشارد كيرني: جدل العقل "حوارات آخر القرن، مرجع سابق، ص 164

قائمة المراجع:

- إسرائيل شحاق، ولبر سنسر، ليفيا روكاش، ألفريد ليلينثال، (2003) روجيه جارودي، القلم الجريء: مفكرون غربيون ويهود انتقدوا الصهيونية، ط1، ترجمة البراق عبد الهادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- إدموند جابيس، (2003) أسئلة الكتابة أو حوار الفلسفة مع الأدب، ط1، ترجمة إدريس كثير، دار الحداثة، فاس.
- إدوار سعيد، (2006) الثقافة والمقاومة، ط1، حاوره دايفيد بارسيمان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، المشروع القومي للترجمة، بيروت.
- إدوار سعيد، (2006) الثقافة والمقاومة، ط1، حاوره دايفيد بارسيمان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، المشروع القومي للترجمة، بيروت.
- جان هيبوليت، (1975) مدخل إلى فلسفة التاريخ عند هيجل، (دط) ترجمة: أنطوان حمص، وزارة الثقافة، دمشق.
- حنة آرنت، (2014) ايخامن في القدس، تقرير حول تفاهة الشر، ط1، ترجمة: نادرة السنوسي، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية، ناشرون.
- مايكل رايس (2013) الوطن المغتصب، إسرائيل في فلسطين والبحث عن الحل، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة
- مونيس بخضرة، (2009) تاريخ الوعي «مقاربات فلسفية في جدلية ارتقاء الوعي بالواقع» ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت.
- نعوم تشومسكي، (2010) أشياء لن تسمع بها أبدا «لقاءات ومقالات»، دط، ترجمة أسعد الحسين، دار نينوى.
- ريتشارد كيرني (2005) جدل العقل «حوارات آخر القرن»، ط1، تر: إلياس فركوح وحنان شرايخة، المركز الثقافي العربي.

MğminğunWithğutBğrders

Mğminğun

@ Mğminğun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

infğ@mğminğun.cğm

w w w . m ğ m i n ğ u n . c ğ m

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018